

الميلودي شغموم

بداية تدوين يوميات رجل عاطل شبه مثقف قيل انه مات بالربو قبل أن ينهي تدوين وقائع كل أيام الاسبوع .

1 - الثلاثاء

الذباب . كثر الذباب هذه الايام ، بعد أعوام سنبدأ بتصدير الذباب الى الخارج . أما السكر فمفقود . كذلك الشاي . هل الحياة حياة بدون سكر وشاي ؟ اللحم ؟ لماذا لا نكتفي برائحته ؟ رائحة اللحم ما أجملها ! انها كرائحة النساء . فلنشم رائحة اللحم كما نشم رائحة النساء ! حكى أعرابي ، قال : أهل المدن لا يعرفون اللحم طعما أو رائحة ، وقد عجزوا جميعا أمامي عن التمييز بين لحم البقر ولحم الحمير وبين لحم الغنم ولحم العنز ، وللصراحة أقول : أنا أيضا كنت من العاجزين ، ولم أسمع بقية الحكاية . فقد سألني أخي الذي يذهب الى المدرسة ويريد أن يصير معلما : على أي شكل تنتقل الرائحة ؟ هل تنقل على شكل موجات كالغضب أم على شكل حبات كالكرامية ؟ استغربت كيف يطرح فتى جائع هذا السؤال ، فهو لا يذهب الى المدرسة ليصبح انشنتين ، يذهب اليها فقط ليأخذ شهادة تسمح له بالحق الأدنى في الشاي والخبز ، لكنني مع السؤال فكرت في رائحة اللحم والنساء . قلت : على شكل خنجر ناعم الالم مفرط في الطول والمضاء ، أفرغ كأس الماء في جوفه مد كسرة الخبز الى فمه ثم خرج وهو يميل تحت ثقل دفتره . قلت : عندما يصل الى المدرسة سيكون بطنه قد فرغ نهائيا ، فكيف يمكنه أن يسمع ما يقوله الاستاذ ؟ هل للتعليم من معنى اذا كان التلميذ والاستاذ يعانسان معا من سوء التغذية ؟ تذكرت ما قاله لي مرة : أحس أن معدتي قد أصبحت صغيرة جدا ، لا شك أنها بدأت تاكل نفسها ، شيء طبيعي جدا ، حتى بعض الحيوانات عندما تجوع تاكل صغارها . شيء آخر : اني لا أشعر بأن لي أمعاء . ما أجمل أن يصبح الانسان بلا معدة ولا أمعاء . عندئذ دخل مخلوق ظل يبيع نفسه

للاخرين حتى لم يبق منه شيء :

— ماذا قالوا لك ؟ — قال لي الطبيب اني مصابة بداء السكر — ولم يتل لك انك مريضة بداء فقر الشاي ؟ — وما هو هذا المرض ؟ — هو المرض الوحيد الذي أصبح يعاني من ويلاتة جميع الفقراء بدون استثناء — لا تمزح يا ولدي — اني لا أمزح . هل قال لك انك مصابة بداء تقلص المعدة في الامعاء ؟ — هل هذا مرض أيضا ؟ — نعم . مرض جديد وعضال . هو في الواقع وباء كالكوليرا واسع الانتشار هذه الايام ، هل تشعرين أن معدتك وأمعائك تأكل ذاتها ؟ — الالم يا ولدي في كل مكان ولم يعد بالامكان تمييز هذا عن ذلك — قال لك الجاهل مع ذلك انك مصابة بداء السكر ؟ — وأعطاني حبتتي أسبرين ثم نصحني بشرب الشاي من غير اضافة سكر اليه — مرض السكر يا والدتي لا يعرفه الا الذين يأكلون جيدا — لاشك أنه هو أيضا قد تعلم الطب في الخارج — بكل تأكيد — فهمت الآن لماذا كان يتكلم بالفرنسية ويترجم له الممرض — تلك احى وسائلهم في التعريب — آه ! أقصد أنه لا يتكلم العربية ، أي ... لا شيء... كانت أختي جالسة بنفس الطريقة التي جلست بها الكلية على مؤخرتها الصغيرة الضامرة حين التفتت نحوها أمي : ألا تذهبين أنت اليوم الى عملك ؟ سألت لا شعوريا : هل وجدت عملا يا زهرة ؟ انتهت أختي فجأة ولم تعرف بماذا تجيب . تدخلت أمي : عند أسرة فرنسية بالمدينة ، تعمل زوالا وليلا فقط . عدت أتسأل : كيف ؟ الفرنسيون قوم ينامون عادة مبكرا ، فكيف تشتغل عند هذه الاسرة ليلا ؟ غير أن أمي أدركت لماذا سكنت فغيرت الموضوع : وأنت ، الى أين وصلت حكايته مع الكونترا ؟ هل أقول لها ان الكونترا مجرد وهم واني قد قطعت كل أمل في السفر الى الخارج من أجل العمل ؟ نحن لا نعيش الا بالاوهام ، والاوهام تكون أحيانا خير معين على تحمل قساوة هذا الواقع الكافر ، لن أحرما اذ من هذا اللوم الذي طالما تمسكنا به جميعا كعرقى تمسكوا بعود ثقاب : قيل انها ستكون هنا بعد شهر تقريبا ، وها أنا أنتظر — انك أملنا الوحيد بعد الله . — وأملتي أنا ؟ نعم . آه . فعلا . وهل لي أنا غيركم؟

— الاربعة :

تقول الاغنية الامازيغية القديمة : اطل السيف / فقال العنق : ها ند عاد حبيبي / سينثرني كالرائحة في كل الشوارع / كافراد النحل في كل الحقائق / ولن أعود بعد ذلك انسانا تكثر آلامه / سأصير ، أطلب أن اصير طيرا / غرابا يعني الخراب / للشمس التي لا تموت / وعلى كل فان لكل واحد أحبابه / للعنق الطويل السيف أو المفصلة / وللنفس الغاضبة جدرانا أربعة / وللضائعين الكأس وأحزانها .

ويقول صوت طفلة منهكة : أريد خبزاً لوجه الله ، أو لوجه الخبز . كما تريدون . انما اعطوني الخبز ، اني لا أطيق الصبر . اقتربت مني الطفلة

فسألتها : - هل تعرفين فرنسا ؟ - سمعت عنها ، لماذا السؤال ؟ - لان فيها خبزاً كثيراً وحليباً كثيراً ، وأما الخبز والشاي فليسوا غداءهم الاساسي ، لذلك يوجدان بكثرة - ومن يأتيني بذلك ، ليس لي أحد في هذه الدنيا ؟ - سافري بنفسك ، انهم هنك في حاجة الى النساء المصنوعات هنا أكثر مما هم في حاجة الى الرجال المصنوعين هنا ، وحتى هؤلاء الرجال يعيشون أزمة نساء - ولكن، الكونخرا ؟ - تلك هي المشكلة . أقول لك الحق ؟ - آه . - لا تسافري . ان فرنسا أيضاً مجرد وهم ، وسفرك لن يحل لك أية مشكلة . وإذا ما حل مشاكلك فلن يكون ذلك الا بطريقة كاذبة - هذا رأيك . أنا أريد أن أسافر الى ابي محان، ولو الى طنجة . - أما أنا فقد تعبت من السفر ، من الهجرة الى كل مكان ، خاصة الى فرنسا . نحن نبدا في الهجرة الى فرنسا منذ طفولتنا المبكرة ، منذ أن نبدا في تعلم الكلام . ثم تستمر الهجرة اذا دخلنا الى المدرسة ، تستمر الهجرة بطريقة حقيقية ، أما اذا وجدنا عملاً أو بقينا عاطلين فان الهجرة الخيالية تستمر بكل الطرق ، لكن أعذب من أغاني أم كلثوم ، الهجرة في الرأس والقلب قوية وساحرة كأغاني أم كلثوم . هل تعرفين أم كلثوم ؟ - مانت أم كلثوم ، ومات فريد الاطرش - أبدا ، كذبوا عليك ، لن يموتا ما دامت هناك اذاعة وتلفزيون - أقول لك مانا - لنفرض لكن عبد الوهاب ما زال حيا - عبد الوهاب لا يعجبني دائماً ، لا يعرف الغناء مثل أم كلثوم وفريد . هل تذهب الى السينما ؟

ولكي لا نفتح موضوع الافلام العربية والهندية وضعت في يدها ريالاً وطلبت منها أن تدعوا الله ليعفو عني من جوع البطن والامعاء ، من الجوع الى أغاني أم كلثوم وفريد ، من الجوع الى الافلام العربية والهندية ، من الجوع الى الكلام ، من الرغبة الجائعة في الشتم والضرب والعض ، من الشعور أحياناً بالميل الى حب أكل نفسي وشرب ما يملأ جمجمة الآخرين . لكن الطفلة بدت كالمذعورة ، فعرفت أنها لم تفهم الا قليلاً مما دار بيني وبينها ، صرقتها وجلست أحاول صنع سجارة من بعض البقايا . تطلب مني ذلك زمناً طويلاً ، الى ان عادت الطفلة ومدت الي علبه « مالبورو » : - من أعطاك هذه العلبه ؟ - فتاة جميلة جداً ، قالت لي اعطها للشباب الجالس هناك فوق الحجر بباب الكوخ - ولم تقل لك ما اسمها ؟ - هل عندك ريال آخر ؟ - لا ، خفي سحابة اذا شئت ، أختي ؟ أصبح وجهها نظيفاً جداً ولم تعد تستطيع محو أثر الاصباغ والاناقة . لن تكون الاسرة الفرنسية الا كنية حان أو مبغي عام في أي مكان من المدينة . ولن تكون ياس سعيد أول ولا آخر من يعيش على عائدات فرج أخته . ألم تعش قبل ذلك على عائدات فرج أمك ؟ ان من يدخل سجننا أو يساعد على فتح آخر يوسع رقعة الارض بعدة كلمترات ، فليكن لنا عذاب الدنيا وثواب الآخرة ، تعال أنت ، عمر تعال - والله العظيم ما بجيبي ريال واحد هذا اليوم - تعال ، قلت لك - ماذا تريد ؟

— هل ذهبت اليوم الى المدرسة ؟ — وماذا تريدني أن نفعل بها ؟ — أن تتعلم لتصبح معلما أو دركيا أو أي شيء — لمعلوماتك الخاصة يا كبير العائلة : لم أرها منذ عامين — إذن كنت تكذب علينا طول هذه المدة — كلا ، كنت أخرج ساعة الذهاب الى المدرسة وأعود ساعة الخروج منها . لكن ، بينما يستمع أصدقائي الى ذلك الرجل الذي يعلمنا كل علوم الدنيا ماعدا علم كسب الخبز كنت أنا أبيع وجبات معجون نسيان الدنيا لابناء الموظفين مثله — لعل لك الآن رأسمال مهم ؟ — طبعاً ، حوالي نصف ثمن الكونترا — لماذا الكونترا ؟ — أريد أن أهاجر الى فرنسا — بذلك لن نحل الا مشاكل البنك الشعبي ، أما مشاكلنا (يا أهل هذه الارض المباحة للرؤوس الشقراء سيصبح الذين يكذبون عليكم قوما يكذبون على أنفسهم وكلما ازدادوا كذبا عليكم ازدادوا كذبا على أنفسهم . وسيأتي يوم يكون فيه عن رؤيتكم ، ذلك يوم سيكون فيه عن رؤية أنفسهم لانهم سيظلون يغورون داخلها كما تغور رؤوس السلاحف من الخوف داخل أجسادها ، ! انما أنتم لا تنتظروا حتى يأتي ذلك اليوم . لقد زارنا غراب من وطنكم وسمع ما قاله النمل للرب حين تركزت في الحقول قوافل الجراد . غير أن الغراب كما تعرفون أعور ، ولهذا السبب سمع وما رأى . وقيل انه محظوظ ، ذلك ما تقولوه الاسطورة الفرعونية ، نحن كالنمل ، في الهم سواء .

### 3 - الخميس :

جلست كعادتي كل مساء فوق الحجر الذي كان يجلس فوقه أبي وهو الحجر الذي قالت لي أمي عنه بأن الجلوس فوقه مسألة وراثية داخل العائلة لان جدي كان يجلس فوقه هو أيضا كل مساء . أينما أولي أنفي لا أستطيع ان أشم أثر الهواء النقي . هذه الاكواخ لا يظهر قذارتها الا المطر الذي يشبه الطوفان . الباردة حلت بالطوفان . ثم حلت بعد ذلك بالزلازل . وقبل أن استيقظ حلت بالحريق ، وكان اناس سعداء لرؤية اللهب . كثيرا ما أرى في منامي أشياء مخيفة : حروب أهلية ، انقلابات عسكرية افريقية ، ثورات عربية قديمة وجديدة ، كلاب غريبة ذات أنياب طويلة تنهش قلوبا لم أميز هل كانت بشرية ، جهنم وقد فتحت أبوابها والناس يدخلونها عرايا ، الناس وقد نبتت لهم مكان الاظافر مخالب كالسكاكين المعقوفة ، الحشرات وقد صارت لها جثث ضخمة كجثة العيصور ، النساء وقد فتحن فروجهن للذئاب تلتق منها البول المختلط بالمني الفاتر ، الرجال يمتصون أيورهم كالرضع الذين يمتصون أصابعهم أو قطع الحلوى ، الارض وقد غزاها الشوك والحجارة الذين بلا هوية . فسرت لي جدتي أحلامي بأنها نتيجة الجوع . ربما كان معها الحق أحيانا . اني في كل تلك الحوادث أشم رائحة الجوع . وعندما استيقظ أجد معدتي وأمعائي تأكل من ذاتها . حتى في الغائط ألمح آثار الانسجة التي تتكون منها المعدة والامعاء ، وفي عملية التنفس ، أثناء الزفير ، أحس بأجزاء دقيقة من رثتي تخرج

مع الهواء . وفي الدم ، وفي البول ، وفي ضحك الأطفال ، دائما نفس الشعور ، حتى عندما أرى الآخرين يأكلون ، يشربون ، يحننون ، يتكلمون ، يبولون ، يتنفسون ، يمارسون الجنس ، دائما نفس الشعور . هم أيضا يعيشون ، أقول لنفسي ، نفس المأساة ، حلما مرعبا أثناء الليل والنهار ، لا فرق بين أحلام الكبار والصغار . الصغار أصبحوا يولدون اليوم بلحي وأسنان مسوسة من أثر التدخين ، يولدون فيفتحون أعينهم ليل نهار على أحلام مرعبة وطويلة ، والصغار أصبحوا يعيشون اليوم بسرعة ويموتون بسرعة قبل الشيوخ بعشرات الاعوام . تلك مأساتي . تلك مأساتنا يقول صديقي نحن الجيل الذي ولد في عهد الجوع والمخبرين (تعال أيها الطفل ، نعم أنت ، لست طفلا ؟ أذن تعال أنت ، أنت أيضا لست طفلا ؟ طيب وأين الأطفال ؟) أين أطفال هذا الدرب القذر ؟ وأين فتياتك ؟ قيل لي في الحمام ان عند القوادة الخبر اليقين . وقالت لي القوادة العجوز : لا تبد ثعن البراءة منذ الآن ، وبقيت أتميز غيظا حتى من الرجل الذي يخلق ذقنه كل يوم بعناية ، حدثت أن مروره بهذا الدرب يتم بغاية التمهيد للحملة الانتخابية . قبل أن يتكلم تكلمت : - لن نصوت الا عليك . ستصوت كل العائلة عليك ، وكل المعارف والاصحاء . فكم تدفع هذه المرة ؟ بالمناسبة هذه شروطنا الجديدة : نريد شيكات من خنيفة وزردة بالمشوي الحقيقي وبذلة لكل عضو من أعضاء فريق الحي ، هل توافق أم نختار غيرك - وهل صوتم علي في المرة السابقة كي أوافق ؟ - اظنك نجحت ، وهذا هو المهم - لقد أكلتم وقبضتم مني تم صوتم على الملحدين ، غير اني لست هنا من أجل الحملة الانتخابية ما دمت ترى أنني وحدي - اذن جئت لتنفذ أحوال ريعتك بهارليم - جئت لأقول لك اهرب . لقد بدأت حملة جديدة وأنت شخص له سوابق - أنت خالي ، اذا كنت لا تستطيع أن تحمينا من الجوع رغم كثرة ما سرقتنا منا فاحمنا على الأقل منهم - تعرف أن هذه مسألة لا تنفع فيها الوساطات . اقتل ، اسرق ، افعل أي شيء تخرج برئيا بفضل تدخلات خالك ، أما ... - أقول لك باختصار أيها الخال : جئت لتفرقني لا لتتقذني . لكن ، مع ذلك ، اذهب مطمئن البال : لم اعد قادر على العمل السياسي بعد أن فقدت أعضائي التناسلية وبعضا من دماغي . اذهب عليك اللعنة الى يوم القيامة - طيب . بما أن أمر نفسك لا يهمك فان لك عندي خيرا آخر : اختك ، - ماذا تريد منها هي الأخرى ؟ - انها في الكومساريا مع أحد اخواننا عرب البترول - وبعد ؟ اطلق سراحه ودفعوها الى المحكمة بتهمة السكر والزنى والتشرد - وتهمة الجوع ؟ اذهب أنت وهي الى الجحيم ، أنا لا أتدخل في شؤون أحد - دعني أخبر أمك على الأقل - ستعطيك صوتها من غير أن تتعب نفسك - شيء آخر : أخوك . - قلت لك لن نبيع - أخوك يا سيدي أنعم الله عليه بالكونترا ، أنا لم أقم بغير الواجب - بعد أن أعطاك طبعا ما جمعه منذ أعوام ، أعرف أنك طيب . لكنه لن يمكث هناك طويلا - لماذا ؟ - لأن ملايين من العمال أصبحت

مهدة بالطرد . بالمناسبة : هل ستكتبون بعد عودتهم مطرودين ، ومن المحيط الى الخليج : « مرحبا بعمالنا في الخارج » ؟ - تلك الاجراءات لن تمنسنا نحن لاننا مرتبطون معهم بوضعية خاصة جدا - هل تستطيع أن تقول لي يا سيدي العزيز لماذا مستكم الاجراءات المتعلقة بقطاع النسيج رغم هذه الوضعية الخاصة ؟ - ذلك شغل الحكومة - لكنه أيضا شغل ممثلي المواطنين - على كل حال اذا فكرت جيدا فانا مستعد لاجد لك عملا - وتعزز بي عناصر العصابة المكلفة بالدعاية لك - لآخر مرة أقول لك اهرب ان الحملة قد شملت اثنين من اصدقائك - لآخر مرة أقول لك انج بجلدك .

يمشي كالذئب ، يعيش كالكلب ، انما هو في حقيقته ثعلب ، لا أحد يحترمه . الكل يخاف منه . لكن الكل يتمنى أن يراه في يوم من الايام معلقا من اذنيه . ولن يكون ذلك الا في هذا الدرب وربما أمام هذا الكوخ قرب هذا الحجر الوراثي ، من هذا الحجر ما زلت أشم رائحة أبي ودم ذلك الخائن الذي اغتبل من طرف رجال المقاومة وسقط رأسه فوق هذا الحجر . هو تاريخ حقيقي تاريخ هذا الحجر رغم أنه ليس كله وراثيا . - هل رأيت هذه المجلة ؟ - ماذا تحمل أنت أيضا من أخبار ؟ - مستوى الباكلوريا . لقد كتبت طلبتي - أنا أيضا سأقدم طلبا - صحيح ؟ - لن يكون باسمي ، سيكون باسم أختي - ولماذا لا تقدم طلبا أنت أيضا ؟ - أخشى ان ذهبنا جميعا أن تكثر الثعالب وتفعل كل ما تشاء - وماذا تستطيع أن تفعل وحدك ؟ - من قال لك اني وحدي ؟ تشتتوا أنتم اذن في أوروبا ، في افريقيا ، في أمريكا ، في كل أنحاء العالم ، وعندما تنشأ أزمة اقتصادية أو سياسية ستعادون كما صدرتم مجرد علب سردين مصبر متعفن . لماذا لا يفكرون في المعامل الحقيقية بدل الفولكلور والطرق الفخمة ؟ استيقظ يا رجل . ستعود مرة أخرى الى أوهايو .

#### 4 - الجمعة :

البارحة حلمت بالاطفال يضعون الزهور على قبور الاموات وصور الغائبين ، وكانت في أيديهم كؤوس الشاي والرفيف المحشو بالسكر ، ورغم بقايا الدم في الكؤوس وعلى الخبز فقد كان الاطفال فرحين ويشعرون بأنهم اطفال ، غير أن الازمة عاودتني . وها هي تعاودني هذا المساء أيضا . لا يمكن أن يدخل الهواء ، لا أشعر بذرة هواء داخل الرئتين أو في القصبة . فقط أشعر بالدم يفور . حالة نزيف أو اختناق ، لس تأدري ، لكنها مؤكدة ، الهجرة الحقيقية . و ...

شغوم الميلودي